



التربية على الثبات على الحق

من هدي رسول الله
صلّى الله عليه وسلم
في التربية

ذ. عبد الله الهلالي¹

الحديث

قال الإمام البخاري: «حدثنا الحُمَيْدِي حدثنا سفيانٌ حدثنا بيانٌ وإسماعيلٌ قالا: سمعنا قيساً يقول: سمعتُ خباباً يقول: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردةً وهو في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدةً، فقلت ألا تدعو الله، فقعدَ وهو مُحَمَّرٌ وجهُهُ، فقال لقد كان مَنْ قبلكم ليمشط بمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحمٍ، أو عصبٍ ما يصرِفُهُ ذلك عن دينه، ويُوضع المنشار على مَفْرِقِ رأسه، فيُشَقَّقُ باثنين ما يصرِفُهُ ذلك عن دينه، و لِيُتَمَنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت ما يخاف إلا الله. زاد بيانٌ والذئب على غنمه»²

تقديم الحديث

هذا الحديث العظيم أخرجه الإمام البخاري والإمام مسلم وأبو داود وابن حبان وغيرهم. رضي الله عن الجميع. وسوف أقصر على رواية سيدنا البخاري. ورد هذا الحديث بصيغ وروايات عديدة كلها تتصل بسيدنا خباب بن الأرت. أورد الإمام البخاري هذا الحديث في كتاب المناقب، مناقب المهاجرين والأنصار، وبدأ بهذا الحديث باب " ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة" يندرج هذا الحديث في نبوءة الرسول الكريم وفي يقينه المطلق بنصر الله تعالى لعباده المستضعفين متى صبروا على البلاء والابتلاء وثبتوا على الحق. قال الله تعالى: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾³ ال سجدة 24. كما أن الحديث تربية وتعليم لنا أن الثبات على الحق له ثمن ويتطلب تضحية وبذلاً. وتلك سنة الله في خلقه مصداقاً لقول الله رب العالمين: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من

¹ باحث في المركز المغربي للأبحاث وتحليل السياسات

² صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة البخاري، (المتوفى سنة 256 هـ) المجلد 2، الجزء 4-6، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص 56

قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴿٢٣﴾ الأحزاب 23. ويعتبره البعض من بشارات الرسول صلى الله عليه وسلم للأمة بعامة ولأهل الحق والصابرين على المكاره والابتلاءات بخاصة. وفسر ابن حجر "ما لقي" بالأذى الذي كان يتعرض له الرسول الكريم والصحابة رضوان الله عليهم. واستشهد على ذلك بما رواه ابن إسحاق عن ابن عباس قال: «والله كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسا من شدة الضر حتى يقولوا له اللات والعزى إلهك من دون الله فيقول: نعم»³ وقد ذكر أصحاب السيرة جملاً من ألوان العذاب التي تعرض لها الرعية الأولى من الصحابة؛ أمثال: بلال بن رباح، وعمار بن ياسر، وخباب بن الأرت، وخبيب بن عدي وأورد البخاري هذا الحديث بطرق أخرى من بينها:

1- عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِّ قَالَ: شَكَّوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا فَيَجَاءُ بِالْمَنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ

2- وأخرج أبوداود في سننه عن خباب قال: أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة في ظل الكعبة فشكونا إليه فقلنا ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا فجلس محمرا وجهه فقال قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض ثم يؤتى بالمنشار فيجعل على رأسه فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب ما بين صنعاء وحضرموت ما يخاف إلا الله تعالى والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون.

3- قال البخاري: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى حَدَّثَنَا يَحْيَى عَنْ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا قَسْرٌ عَنْ خَبَّابِ بْنِ

الْأَرْتِّ قَالَ قَالَ شَكَّوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا قَالَ كَانَ الرَّجُلُ فَيَمْنُ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيَجَاءُ بِالْمَنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَتَشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ

³ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن باز، دار الكتب العلمية 1989 بيروت، ط1 ج 7 ص 210

مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الدَّثْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ

ولهذا الحديث في معنى الثبات على الحق والصبر، ما يعضده من آيات وأحاديث منها :

*الآيات: قال الله تعالى:

1- ﴿وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيِّ قُتِلَ مَعَهُ رَيْثُونٌ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ آل عمران 146

2- ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾ البقرة 154

3- ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ الأنبياء 104

4- ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ آل عمران 173

5- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ آل عمران 102

6- ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يونس 107

7- ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ الأعراف 137

الأحاديث: قال النبي صلى الله عليه وسلم

1- «ما يُصِيبُ الْمُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ

يُشَاكُّهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ» رواه البخاري و مسلم

وفي رواية لمسلم « ما يصيبُ المؤمنَ من وصبٍ ، ولا نصبٍ ، ولا سقمٍ ، ولا حزنٍ ، حتَّى الهمُّ يَهْمُهُ ، إِلَّا كَفَّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ »

2- «ما يزالُ البلاءُ بالمؤمنِ والمؤمنَةِ في نفسِهِ وولَدِهِ ومَالِهِ، حتَّى يلقى اللهَ وما عليه خطيئةُ» رواه

الترمذي .

3- «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا

ومن سخط فله السخط» رواه الترمذي .

4- «فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّاماً الصَّيْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ؛ لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ». قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَزَادَنِي غَيْرُ عُتْبَةَ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا مِثْلًا أَوْ مِنْهُمْ قَالَ لَا بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ». رواه الإمام الترمذي .

راوي الحديث

جاء في الإصابة⁴ «هو أبو عبد الله خباب بن الأرت بتشديد المثناة، بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سعد بن تميم التميمي. سُبِيَ في الجاهلية فبيع بمكة. كان من السابقين الأولين، حيث أسلم سادس ستة. كان أول من أظهر إسلامه فعذب لذلك عذاباً شديداً. شهد المشاهد كلها.» توفي رحمه الله سنة 37 هجرية وصلى عليه الإمام علي منصرفه من صفين، و شهد فيه قائلاً: ⁵ «رحم الله خباباً أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتلي في جسمه أحوالاً ولن يضيع الله أجره.» قال عنه طارق بن شهاب: «خباب من المهاجرين الأولين وكان ممن يعذب في الله عز وجل» «سأل عمر خباباً عما لقي من المشركين. فقال خباب أنظر إلى ظهري. فقال عمر ما رأيت كاليوم قال أوقدوا لي نارا فما أطفأها إلا ودك⁶ ظهري»⁷ عن أبي وائل قال: «دخلنا على خباب بن الأرت نعوذه في مرضه فقال: إن في هذا التابوت ثمانين ألف درهم، والله ما شددت لها من خيط (ما أخفيها ولا أغلقت عليها صندوقاً ولا كيساً)، ولا منعته من سائل. ثم بكى فقل ما يبكيك؟ قال أبكي أن أصحابي مضوا ولم تنقصهم الدنيا شيئاً، وإنا بقينا بعدهم حتى ما نجد موضعاً إلا التراب»⁸ رحم الله تعالى سيدنا خباب بن الأرت، ورضي عنه وعن جميع الصحابة آمين.

مفردات الحديث

1- متوسد: اسم فاعل من توسد أي اتكى ووضع رأسه على برده. التوسد وضع الرأس على ما يُتوسد عليه من وسادة أو كساء أو غيره. والقصود والله أعلم مُلتف بعباءته

2- البردة: اسم جمعه بُردٌ وبُردٌ، وهو الثوب أو الكساء الذي يُلتحف به، كالعباءة - البردة قصيدة كعب بن زهير عندما أسلم فمدح الرسول طالبا العفو عنه، ومن بعدها قصيدة للإمام البوصيري رضي الله عنه في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم.

⁴ الإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995 ط 1 ج 3، ص 221

⁵ محمد بن فرج الأصفهاني، تحقيق عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1997، ط 1، ج 1، ص 194 الإمام أبو نعيم أ

⁶ الودك: الشحم والدم

⁷ الإمام جلال الدين البكري المعروف بابن الجوزية، صفة الصفوة، تحقيق عبد الحميد هندواي، المكتبة العصرية، بيروت، 2000 ط 1 ج 1، ص

148

⁸ الإصابة في تمييز الصحابة

3- مِشَاطٌ: مُشَطٌّ وَمِشَطٌّ: أداة ذات أسنان لتسريح الشَّعر وترجيله، جمع أمشاط و مِشَاط، يكون

من عظم أو حجر أو غيره، المُشَطُّ أيضا منسج ينسج به

4- يصرفه: يصده ويغيره ويحوله

5- مفرق الرأس: جمع مفارق وهو موضع انفراق الشعر، وهو وسط الرأس

6- بيان: هو اسم لأحد رواة هذا الحديث. وهو ابن بشير

7- الأمر: الإسلام للحديث⁹: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه و على آله وسلم في غزوة تبوك فقال

لي: إن شئت أنبأتك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه قال: قلت: أجل يا رسول الله قال: أما رأس الأمر

فالإسلام، وأما عموده فالصلاة، وأما ذروة سنامه فالجهاد»

في ظلال هذا الحديث

في هذا الحديث يخبر سيدنا خباب أنه جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في صحن المسجد الحرام فوجده متوسدا بردة له، جاءه يطلب الدعاء والنصر ويشكو ما لقي المسلمون من أذى ومضايقات الكفار. وقد ورد في رواية: شكونا، ولا تكون الشكوى إلا بعد الضعف والتحمل الكبير للأذى والتعذيب، كما وردت صيغة: ألا تستنصر لنا، أي ألا تطلب لنا النصر. وهذا من الاستعجال والاستفهام وليس من الإنكار. وقوله ألا تدعو لنا لا يفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يدع للمستضعفين. ويحتمل أن خبابا لم يسمع أو لم يبلغه دعاء الرسول على الكافرين. وخصوصا أن الرسول الكريم جعل الدعاء هو العبادة. «الدعاء هو العبادة»¹⁰ وفي حديث الطائف ما يدل على أن الرسول الرؤوف الرحيم كان يتحاشى الدعاء على المشركين، حيث أجاب ملك الجبال الذي اقترح عليه أن يطبق عليهم الأخشبين «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا»¹¹ ولعل ذلك راجع لما علمه الرسول الكريم من جميل ما أعد الله تعالى للصابرين والمتحملين، وأن العاقبة للمتقين والصالحين - فلما جلس الرسول صلى الله عليه وسلم وهو محمر وجهه، قيل من أثر النوم وقيل من الغضب على المشركين وليس على خباب كما يتوهم بعضهم. وقد يكون من أثر حرارة الجو، ذلك لأن الرسول لم يكن يغضب إلا إذا انتهكت محارم الله. أخذ الرسول المعلم المربي، يواسي ويطمئن خبابا بذكر ثبات وصبر من كان قبلنا على دينهم وقد نشروا بالمناسخ. بدأ صلى الله عليه وسلم يبين ما لاقى الأنبياء وأتباعهم في سبيل الدين، فثبتوا على الدين والحق، ولم يلحق المسلمون في زمان الرسول محمد مثلما لحق من قبلهم. كما عبر الرسول

⁹ أخرجه الحاكم على شرط الشيخين عن معاذ بن جبل

¹⁰ أخرجه البخاري وأحمد عن النعمان بن بشير

¹¹ أخرجه البخاري عن عائشة

صلى الله عليه وسلم عن يقينه التام بالتوكيد وبالقسم في بعض الروايات، أن العقابة للإسلام والمسلمين وأن أيام الأمن والعدل والرخاء قادمة آتية. وهذه بشارة عظيمة لهذه الأمة. تكررت في آيات وأحاديث متعددة، منها:

- 1- الآيات: قال الله سبحانه وتعالى
- 2- ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ الأحزاب 47
- ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ الصافات 171-
- 3- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ يونس: 63،
- 4- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ النور 53 5- ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47
- الأحاديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

- 1- «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَلَكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»¹²
- 2- «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا وَبَرَ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بَعِزٌّ عَزِيزٌ أَوْ بَذَلٌ ذَلِيلٌ، عَزًّا يُعَزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذَلًّا يَذُلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ»¹³.
- 3- «بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّعَادَةِ وَالنَّصْرِ، وَالتَّمَكُّنِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ»¹⁴

وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم- في بعض روايات هذا الحديث- بأفة يجب التخلص منها، ألا وهي الاستعجال. وبما ان النصر من عند الله، فإن المطلوب من العبد هو الدعاء والعمل واتخاذ الأسباب. أما الاستجابة فمن الله تعالى، ولكن في الوقت الذي يريد هو. وقد قيل: «لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء - موجبا ليأسك؛ فهو ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك لا فيما تختار لنفسك وفي الوقت الذي يريد، لا في الوقت الذي تريد»¹⁵

دروس وعبر تربوية من هذا الحديث

هذا الحديث الشريف غني بالدروس التعليمية والتربوية التي نحن في أمس الحاجة لاستيعابها وتجسيدها أخلاقا ومعاملات ورسائل نحملها للعالمين. من هذه الدروس أختار:

¹² عن ثوبان أخرجه الإمام مسلم
¹³ عن تميم الداري أخرجه الإمام أحمد
¹⁴ أخرجه الإمام أحمد عن أبي بن كعب
¹⁵ ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية

1- تواضع القيادة وعدم النفور من هموم العامة

يظهر من الحديث كيف ينبغي أن يكون المربي والمعلم والقائد ملاذاً وملجأ للناس. لقد قصد سيدنا خباب الرسول ليبث شكواه ويعبر عن شجونه وهمومه. فاستمع إليه الرسول الكريم وأحسن الإنصات دون مقاطعة أو نهر أو زجر. ولعمري ما أحوج المربين في مختلف الأسلاك والمجالات إلى هذا الخلق الرفيع: الاستماع والإنصات لهموم المتعلمين وحسن التواصل معهم والصبر عليهم، بل تحملهم. كما نفهم من سياق الحديث تواضع الرسول الجم الذي ولا شك شجع خباباً على السؤال والشكوى. فلا حاجب ولا بواب ولا ترتيبات معقدة ولا مواعيد بالأيام والشهور. وإن من أسباب تخلف المنظومات التعليمية في بلاد المسلمين: ضعف التواصل العفوي بين المتعلمين والمدرسين وعدم استماع المدرسين لهموم المتعلمين وشكاواهم.

2- التربية على الصبر على الابتلاء والشدة

التمحيص والاختبار والابتلاء من سنن الله الجارية.

- ﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾ آل عمران. 141

- ﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن

الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ العنكبوت 3.

والابتلاء وسيلة لمعرفة حسن العمل ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾

2. الملك

فالصبر على الشدة والبلاء، والثبات على الحق من أفضل أنواع الدعوة والتعليم ومما يقوي شخصية المتعلم ويكسبه الحنكة ويزيد من الرهط والسواد للدعوة وقد سأل النجاشي سيدنا جعفر عن المسلمين «هل يزيدون أم ينقصون»

وإن الثبات على الحق والصبر على الشدة والضيق هو الذي جعل دعوة أهل الكهف وأصحاب الأخدود خالدة إلى يوم الدين. وإنما النصر صبر ساعة. وما ضاع حق وراءه طالب.

3- التعليم بالقصة والحدث

هذا الحديث درس تعليمي رائع بالقصة والحدث. لقد أحسن الرسول صلى الله عليه وسلم توظيف هذا الحدث: مجيئه خباب ليطلب الدعاء والنصر ليدعونا جميعاً لأخذ الدروس والعبر من التاريخ وممن سبقنا. ومع الأسف كم من أحداث عظام تمر بالأمة وكثير من رجال التعليم والدعوة هم عنها غافلون. إن

اغتنام الأحداث في تمرير الرسائل والدروس والعبر من شأنه أن يعمل على ترسيخها في النفوس والعقول ويحفظها من النسيان. وإن تدريس التاريخ في المدارس والجامعات والإعلام لما يقوي صلة ماضي الأمة بحاضرها ويشحن الشباب بشحنة إيمانية قوية تجعله يعتز أكثر بهويته ودينه وتاريخه. كما أن توظيف القصص يقرب المعاني ويرسخها بعيدا عن المواعظ الجافة والأوامر والنواهي ويجعل الرسائل والعبر في متناول مختلف الفئات.

4-تربية اليقين في نصر الله تعالى

من رحمة الله بالأمة أن جعل النصر للمؤمنين متى استكملوا شروط وأسباب النصر. قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. بهذا لا يحق لأي مؤمن أن يقنط من تأخر النصر. والنصر وعد من الله ولن يخلف الله وعده.

قال ابن الجوزية رحمه الله¹⁶ «ومنزلة اليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد... به تفاضل العلماء وإليه شمر العاملون، وفيه تنافس المتنافسون».

-في غزوة الأحزاب لما عرّضت للصحابة صخرة عظيمة في الخندق وهم يحفرونه، استدعوا رسول الله فأخذ يفتتها بفأسه وهو يكبر كلما تفتت جزء، ويبشر أصحابه بفتح بلاد فارس والروم وصنعاء، هذا كله ليغرس في نفوسهم الثقة بنصر الله لهم، وهذا الذي قصده في حديث خباب وأكّده بالقسم.

« فَقَالَ بِسْمِ اللَّهِ فَضْرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ وَقَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ وَاللَّهُ إِنِّي لأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْخُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ وَضْرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ وَاللَّهُ إِنِّي لأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ وَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا ثُمَّ قَالَ بِسْمِ اللَّهِ وَضْرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ وَاللَّهُ إِنِّي لأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي »¹⁷

-خطب أبو بكر الصديق في الناس يوما فقال: «قال صلى الله عليه وسلم: يا أيها الناس إن الناس لم يعطوا في الدنيا خيرا من اليقين والمعافة فسلوهما الله عز وجل¹⁸».

-وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «تعلموا اليقين كما تعلموا القرآن حتى تعرفوه فإنني أتعلمه¹⁹».

¹⁶، ص 457 ابن القيم الجوزية، تهذيب مدارج السالكين، تهذيب عبد المنعم صالح العلي العزي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1991، ط 1

¹⁷ أخرجه الإمام أحمد وأبو يعلى

¹⁸ أخرجه الإمام أحمد في مسند أبي بكر

¹⁹ أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين عن خالد بن معدان

-وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « اليقين الإيمان كله²⁰ ».

-وفي الحديث « إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح بالرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في السخط والشك²¹ »

5- التربية بالبشارة

الحديث بشارة بمستقبل أفضل للمسلمين. والبشارة والاستبشار من أخلاق النبوة. فعن أبي موسى الأشعري أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَهُ وَمَعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ « يَسِّرَا وَلَا تَعْسِرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنْفِرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلَفَا »²².

والتبشير يعطي الأمل دوماً، خلاف للتقنيط والتأييس.

في هذا الحديث الأمر بالتبشير بفضل الله، وعظيم ثوابه، وجزيل عطائه، وسعة رحمته، والنهي عن التنفير بذكر التخويف، وأنواع الوعيد محضة، من غير ضمها إلى التبشير. وفي قمة المصائب والابتلاءات دعا نبي الله يعقوب أبناءه إلى الاستبشار وعدم اليأس والقنوط قائلا: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ سورة يوسف 87

فما أحوح الدعاة والمربين في مجتمعنا لبث روح الاستبشار في نفوس الناشئة ومحاربة التأييس والقنوط. ما أحوجنا لمن يعلم ناشئتنا أن الباطل قد ينتصر في جولة، ولكن الحق له العاقبة دوماً مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ الإسراء 81

6- لفت انتباه السائل وصرفه إلى ما هو أهم من سؤاله

من الدروس التربوية البليغة في هذا الحديث هو صرف النبي صلى الله عليه وسلم انتباه خباب إلى ما هو أهم من الدعاء على الكافرين، ألا وهو استبصار الغد والمستقبل والاستبشار بموعد الله ورسوله، ولعمري إنها براعة في التواصل وتكوين شخصية المتعلم ليكون واسع الأفق مرتبطاً بعظائم الأمور لا بصغارها وسفاسفها. والمتعلم إذا لم يجد من يعينه على التحليق في الأفق الواسع البعيد، يظل حتماً حبيس منظور ضيق مختزل مشوه. ويصنف العلماء هذا الأمر في جواز إجابة السائل عن أمور وقضايا لم يسأل عنها. وجاء في الحديث « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ وَأَشْرَاقَهَا وَيَكْرَهُ سَفْسَاقَهَا »²³

²⁰ أخرجه البخاري

²¹ مسند الشهاب عن ابن مسعود، الحديث رقم 104

²² الإمام أحمد والبيهقي

²³ مسند ابن الربيع عن الحسين بن علي

وتحكي فاطمة رضي الله عنها، «أَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْأَلُهُ خَادِمًا وَشَكَّتَ الْعَمَلَ، فَقَالَ: مَا أَلْفَيْتِيهِ عِنْدَنَا قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ خَادِمٍ تُسَبِّحِينَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدِينَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُكَبِّرِينَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، حِينَ تَأْخُذِينَ مَضْجَعَكَ»²⁴

7-تربية الممانعة ومقاومة الظلم والفساد

الحديث نموذج فريد في تربية الرسول صلى الله عليه وسلم على مقاومة الظلم والفساد وتشكيل قوة هادئة للممانعة وعدم الرضوخ للباطل بدعوى الواقع وشيوع الأمر واستحالة هزم الباطل وغياب وسائل القوة والدفاع. وإن غياب هذه التربية في زماننا سرع بسياسة التطبيع والانبطاح للأعداء وحكام الجور والفساد والاستبداد. ولن يعدم أصحاب هذا التيار من تبرير مواقفهم بل الدفاع عنها.

خاتمة

يعلّمنا الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الثبات على الحق وقبول الحق والصبر على الابتلاء إيماناً بقضاء الله وقدره، واحتساباً للأجر والثواب عنده. ويخبر صلى الله عليه وسلم أن من كان قبلنا ابتلوا بأبشع أنواع القتل فما صدهم ذلك عن دينهم. كما يبشر الحديث أن المستقبل والعاقبة للإسلام والمسلمين متحدثاً عن قيمة الأمن التي سينعم بها المسلمون حتى يسافر الراكب مسافات طويلة وحده دون خوف على دمه أو ماله أو عرضه. وأشار صلى الله عليه وسلم إلى آفة يجب تجنبها في تربية الناشئة، ألا وهي الاستعجال والقفز على المراحل وعدم احترام السنن الكونية.

إن هذا الحديث الشريف وكأنه قيل في زماننا ويومنا هذا حيث تكالبت فيه قوى الشر على أمة الإسلام، وتعاون حكام الاستبداد والجور وعلماء السلاطين من المسلمين، على الدعاة الصادقين والمستضعفين من المقومين وطلاب التغيير. ولكن ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

²⁴ عن أبي هريرة أخرجه الإمام مسلم